

الترجسية

كنت مولعا بتحليل الشخصيات منذ نعومة أظفاري. وكان أبي يضحك من تعليقي على شخصيات أصدقائه ويتعجب من صحة رأيي بهم. وعندما بدأت أجد القراءة والكتابة، قرأت الكثير من القصص. والقصص التي كانت تشدني أكثر كانت من النوع الذي فيه يسلط الكاتب الضوء على الشخصية ويحللها نفسيا ويقدم الدوافع التي دفعت هذه الشخصية للتصرف بهذا الشكل أو ذاك.

أذكر كيف أنني بدأت بقراءة كتب التحليل النفسي عند حصولي على الشهادة المتوسطة، أي عندما بلغت الرابعة عشر من عمري. كنت أزور صديقا لي عندما وجدت أن أباه يقتني مكتبية زاخرة بالكتب القيمة المتنوعة. كان فيها كتب عن السياسة، عن التاريخ، عن الأدب، عن الشعر، وعن علم النفس. وبما أنني كنت مولعا بعلم النفس، استأذنت صديقي بالاطلاع على عناوين الكتب التي في هذا القسم. كم كنت منشوقا لقراءتها كلها ولكني كنت أتخرج من طلب أي كتاب أستعيره خوفا من أن يرد والد صديقي طلبي. لاحظ صديقي اهتمامي الشديد بهذه الكتب فعرض علي أن أستعير ما أشاء من الكتب إذ إنه كان يثق بي، وقال لي: الكتاب عندك كأنه عندي، فأنا متأكد أنك تقرأه وتعيده لي.

أبيت أن أستعير أي كتاب إلا إذا سمح والده بذلك، فسأل والده وأجابني بالقبول. كم كان فرحي شديدا عندما أخذت أول كتاب وبدأت التهمه من الجلدة للجلدة، كما يقولون. وهكذا كنت أستعير الكتب حتى قرأت كل ما تحتويه مكتبة صديقي. تم ذلك كله قبل أن أبدأ بدراسة الثانوية العامة. وشاء القدر أن أنجح وأدخل كلية القانون وتخرجت بدرجة جيد جدا وأصبحت محاميا مشهورا وناجحا والحمد لله، وأكسب القدر الكافي كي يؤهلني للزواج.

بدأت أفكر بالزواج وأحلم برفيقة العمر، وكانت هذه أصعب مرحلة في حياتي، فالفشل هنا ليس سهلا، والنجاح غير مضمون. بدأت أمني تفتش لي عن بنت الحلال، وكنت كلما رأيت أي فتاة تختارها لي، أقرأ من عينيها، من تعابير وجهها، ومن كلماتها كل ما يجول بخاطرهما، فقراءتي لكتب علم النفس أمدتني بما يشبه بالفراسة، وشكل هذا عندي الكثير من التردد في اتخاذ المواقف الحاسمة التي تتعلق بعلاقاتي مع البشر بعد أن أشعر بما يجول بخاطر محدثي.

وأخيرا تعرفت على مهندس كان يعمل في السعودية وزوجته خريجة شريعة وداعية للإسلام. وعلمت أن له ابنة جميلة ومحبة ذات خلق ودين، وتدرس في كلية الآداب في الجامعة. قلت في نفسي لعلها هي طلبي، ولعلها تكون شريكة حياتي المنشودة. وكان من عادتي أن أحلل شخصية أي شخص أقابله تلقائيا وبدون أن أتعمد ذلك. ولكن هناك مقدرات

لا بد من حدوثها ولا يمكن تخطيها مهما حاولنا تحاشيها. فالقدر يعمي البصيرة بعد أن يتأثر بالبصر.

طلبت مقابلة ابنة هذا المهندس وتم ذلك بحضور الوالدين من كلا الطرفين. كانت جميلة الشكل رشيقة القوام كلامها معسول ونظراتها ذات سحر وجمال تدعو كل من حولها إلى حبها والإعجاب بها. كنت وكأن على عيني غشاوة الانجذاب لشكلها الجميل، فنسيت هوايتي من تحليل الشخصيات وطلبت يدها ووافقت أسرتها على الفور. تمت الخطبة، وكذلك الزواج. ولم أكن أدر ما يخبئه القدر لي.

القدر يعمي البصر وقد أعمى بصيرتي. كم كنت غيبا عندما لم أكتشف النرجسية في شخصيتها. كانت تعبد جمالها وتريد أن يعبدته كل من حولها. كانت تمشي بدلال وكأنها تقول للشباب أنا هنا، أسمعوني كلمات الغزل والإعجاب فأنا أطرب بذلك وأشعر بالنشوة لذلك، أنا التي أعبد نفسي، أنا التي أعيش كي أسمع كلمات الغزل من هنا وهناك. أنا التي لا تشعب من الجسد. أنا النرجسية التي لا ترى إلا هالة نفسي.

نعم تخصصت بدراسة شخصيات البشر، ولكنني لم أتعلم بدراسة شخصية المرأة. علمت فيما بعد، وبعد الصدمة والمحنة الذي عانيتهما أن شخصية المرأة لغز عميق كعمق البحر، وواسع المجال كحجم السماء، وصعب معرفته كمعرفة الغيب. إنها المرأة اللغز. إنها تعشق وتحب وتكره وتشجع وتثبط الهمم، وتذل وترفع، إنها مجموعة من العواطف المتضادة وأنا لك أن تحرز أي من هذه المشاعر هي حقيقتها. إن أحببت، أحببت بعمق وصدق، وإن كرهت، كرهت بقسوة ولؤم. تستطيع أن تمثل أي دور تريده. إنها المرأة... خلت أن كل النساء هن من هذا النوع، ولكنني تراجعت بعد ذلك، بعد أن تذكرت أمي الطيبة الودودة لأبي، الوفية له عند المحن، والصافية النقية التي جل همها أن تنشأنا أولاد صالحين وهي مستعدة أن تكون كالشمعة تحرق نفسها لتضيء طريق الحياة لنا. تزوجتني هذه الفتاة المريضة نفسيا، نعم إن من يحب أن يعبد شكله يحتاج فعلا لعلاج نفسي. تزوجتني لأنه لا بد من الزواج. أما الحب فهو مفتوح بابه لكل راغب ولكل معجب. لا أنكر أن الصدمة كانت صعبة علي في بادئ الأمر، ولكن أبي وصفني بالرجل الصامد، ذو العزم والحكمة، وذلك بعد أن وجد أنني لا أجعل تصرفاتي تبعاً لهواي وعواطفي، فأنا أوّمن بالعقل وأؤمن أن العقل يجب أن يكون ربان سفينة الجسد.

الله كشف لي خبثها وتمثيلها علي، واكتشفت حبيبها الذي ربما يكون واحد من طابور المعجبين الذين كانت تشجعهم وتنتظر منهم كلمات الإطراء، ولكنني تصرفت برجولية وطلقتها.... لم أكن من النوع الذي يرضخ لأوامر القلب، لقد أسكته تماما، ورميته في البحر لتأكله الأسماك الجائعة كي لا يتسلط علي القلب الذي يهين صاحبه، حتى الأسماك تأبي الذل، فرفضته وخافت أن تذل، فأخذته وغسلته بماء الإيمان والرضوخ لله تعالى

فأصبح لا يرى إلا خالقه، ولا يرضخ إلا إليه، ولا ينبض إلا مع إيقاع كلمة الله...الله...الله....

طلقتها وتخلصت من عذاب الشك الذي كان سيلازمني طيلة حياتي لو بقيت معها. طلقتها واسترحت من نرجسيتها فأنا لست الذي يعبد الشكل ويلغي الروح. طلقتها ولكني لم أتأثر بالتجربة الفاشلة، فقد تعلمت درسا، وتعلمت أن أحلل الشخصيات، امرأة كانت أم رجل. تعلمت أن أكون رجل بكل ما تحتويه هذه الكلمة. وأن لا أخطو الخطوة إلا بعد أن أتأكد من الأرض الثابتة التي تطأها قدمي.